أسس البناء الحضاري للمجتمع في ضوء سورة الحجرات

د. حامد بن يعقوب الفريح

رئيس قسم الدراسات القرآنية

كلية التربية - جامعة الدمام



ملخص البحث

يعنى هذا البحث ببيان الأسس التي يقوم عليها المجتمع الحضاري في ضوء سورة الحجرات، والتي يدور محورها حول بناء المجتمع، ويهدف إلى الكشف عما تضمنته السورة من أسس من شأنها أن تنشئ مجتمعاً يقوم على الإيمان والأخوة والطاعة، وغيرها من الأسس، وبيان ما حوته السورة من منهج للتعامل مع أصناف المجتمع المتعددة(المؤمن- المسلم- الفاسق- المنافق)، وقد سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي والاستنباطي، وخلصت في هذا البحث إلى عدة نتائج من أهمها: أنّ مفهوم الحضارة في القرآن الكريم يختلف عن غيره من المفاهيم المادية للحضارة، وهذا الاختلاف يرجع إلى المبادئ والأسس التي تبنى عليها هذه الحضارة، وإذا أردنا معرفة هذه الأسس فلا بد لنا من الرجوع إلى القرآن الكريم، ودراسته بتدبر وتأمل، واستقرائه من أجل التعرف على المبادئ والقواعد والأصول التي عدّها القرآن أسساً لبناء الفرد والمجتمع، وأنّه من خلال دراسة وتأمل سورة الحجرات يمكن أن نستنبط ثمانية أسس رئيسة لبناء المجتمع وهي: الإيمان، والطاعة، والأخوة، والعدل، والأخلاق، والمساواة، والرقابة الذاتية، والتوبة، ومن أهم توصيات البحث: الاهتمام بموضوع الأسس الحضارية لبناء المجتمع في ضوء القرآن، وعمل دراسات مستقلة لكل أساس منها، وإقامة مراكز أبحاث تعنى بدراسة الأسباب التي أدت إلى تخلف المجتمعات الاسلامية حضارياً، ووضع الحلول المناسبة لها.

الكلمات المفتاحية: الأسس، المجتمع، الحضارة، العدل، الإصلاح، الأخلاق.

The Fundamentals of Society's Civilized Structure in Light of Surat Al-Hujurat

Dr. Hammed Ya'qub Al-Fraih
Chairman of the Department of Quranic Studies
College of Education – University of Dammam

Abstract

This research deals with identifying the fundamentals of the civilized society in light of surat Al-Hujurat, which is about building the society. It aims to reveal the content of the surat as of its fundamentals that build a society based on faith, brotherhood, obedience, etc. It also indicates how the surat includes the approach for dealing with multiple types of society: the believer, the Muslim, the debauchee, and the hypocrite.

In this research, I have followed both the inductive and deductive approaches. This resulted to several conclusions. Most importantly, the concept of civilization in the Holy Quran is different from other physical concepts of civilization. This difference is due to the principles and fundamentals upon which this civilization should be built. If we want to know these fundamentals, we must refer to the Quran and study it with contemplation and observation to identify the principles and rules that are considered the fundamentals of building societies and individuals. As a result of studying surat Al-Hujurat, we can extract eight main fundamentals for building the society. They are: faith, obedience, brotherhood, justice, morals, equality, self-censorship, and repentance.

The main recommendations of the research are, considering the issue of civilized fundamentals to build a society in light of the Quran; conducting independent studies based on each of these fundamentals; and finally, establishing research centers concerned with the reasons that led to the failure of Islamic societies regarding civilization, and to develop appropriate solutions.

Keywords: Fundamentals, Society, Civilization, Justice, Reform, Morals.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهدية وسار على منهجه إلى يوم الدين ، وبعد:

فإنّ مفهوم الحضارة في القرآن الكريم يختلف عن غيرها من المفاهيم المادية للحضارة، وهذا الاختلاف يرجع إلى المبادئ والأسس التي تبنى عليها هذه الحضارة، فحينما يحدثنا القرآن الكريم عن المجتمع المسلم الذي أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، فإنّه لا يحدثنا عن المعالم المادية في هذا المجتمع من مساكن وطرق وجسور، وإنما يحدثنا عن القيم والمبادئ التي تمكن من خلالها الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصنع من رعاة الأغنام بفضل الإسلام قادة استطاعوا أن يقيموا حضارة رائدة لم تعرف البشرية لها مثيلاً، ألا وهي الحضارة التي وضع لبناها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم.

إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أقام حضارة لكنها ليست بنياناً من أحجار، وأنشأ مصانع إلاّ أنّها ليست مصانع من حديد، بل من نوع آخر من الناس، هم أصحاب العقيدة الصافية، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة، هم الذين قال الله في وصفهم﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ الفتح: ٢٩.

لقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلم دولة عظيمة، وبنى أمّة قوية، وأسس مجتمعاً حضارياً يقوم على هدي الكتاب والسنة، ذلك الوحي الذي أنزله الله لتسيير الدنيا والدين معاً، وجعل الدنيا مزرعة الآخرة، فسار على ذلك المسلمون، فعبدوا إلهاً واحداً، وانتظموا تحت شريعة

واحدة، ورسخت معالم الحضارة القرآنية في الفرد والمجتمع، تلك الحضارة التي أعادت صياغة الإنسان في معتقداته وأفكاره، في أخلاقه وسلوكه، وفي علاقاته وتعاملاته، وأقامت الروابط المتينة بين أفراد المجتمع الواحد، ثمّ حمل المسلمون مشاعل هذه الحضارة إلى البشرية جمعاء لتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة كما قال ربعي بن عامر[1] رضي الله عنه لرستم قائد الفرس قبل معركة القادسية.

هذا البناء الحضاري للإنسان وللمجتمع يمكن أن نهتدي إلى أسسه من خلال دراسة وتدبر سورة من سور القرآن الكريم، ألا وهي سورة الحجرات، والتي يدور محورها حول بناء المجتمع، وذلك من خلال القيم الربانية التي اشتملت عليها هذه السورة، والتي من شأنها أن تنشئ مجتمعاً متحاباً مترابطاً يقوم على أسس الإيمان، والطاعة، والأخوة، والعدل، والأخلاق.

هذا وقد اعتنت هذه السورة على وجازتها وقلة عدد آياتها بهذه الأسس عناية شديدة، وجاءت لتلقي الضوء على أمور وقضايا تسهم في علاج كثير من المشكلات التي تعاني منها المجتمعات المعاصرة، والتي تدّعي التقدم الحضاري والرقي الإنساني، وهي أبعد ما تكون عن هذه المعاني.

والمتأمل في سورة الحجرات يجد أنها اعتنت بإبراز جانبين عظيمين:

الأول: أنها تكاد تستقل بوضع أسس كاملة لمجتمع حضاري، وذلك بتضمنها عدداً من المبادئ والأصول التي يقوم عليها هذا المجتمع.

(١) هو ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو، كان من أشراف العرب، وهو من بني تميم، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، شهد الفتوحات الإسلامية وأمد به عمر بن الخطاب المثنّى بن حارثة، له ذكر في غزوة نهاوند. انظر: الإصابة(٢:١٩٤)

الثاني: أنها اشتملت على جملة من التوجيهات القرآنية الكريمة لبناء وحماية هذا المجتمع، والتي كانت تتنزل بحسب الوقائع والأحداث في تلك المرحلة[1].

ألا ما أحوج أمتنا العربية والإسلامية اليوم إلى الرجوع إلى ذلك النبع الصافي والمعين المتدفق الذي فاضت به آيات هذه السورة، والاهتداء بهذه الأسس القرآنية، من أجل بناء المجتمع الحضاري المنشود.

وحيث إنّي من المهتمين بالدراسات الموضوعية للقرآن الكريم[2]، ولأنّ القرآن هو المنهج الذي ارتضاه الله لهداية البشرية، وفيه العلاج لما تعاني منه الأمة الإسلامية من تخلف حضاري، أحببت أن يكون لي دور في تلمس الداء وبيان الدواء من كتاب الله ببحث عنوانه(أسس البناء الحضاري للمجتمع في ضوء سورة الحجرات) ويهدف هذا البحث إلى:

١- بيان أهمية التفسير الموضوعي للسور القرآنية في الكشف عن الدلالات والهدايات التي تمثلت في توجيهات القرآن الكريم لإنشاء وتربية المجتمع المسلم.

٢- الكشف عما تضمنته سورة الحجرات من أسس من شأنها أن تنشئ مجتمعاً يقوم على الإيمان والأخوة، ويتربى على مبادئ الطاعة والأخلاق، ويستظل بروح العدل والمساواة، ويفئ إلى رحاب التوبة.

٣- بيان استقلال سورة الحجرات في إبراز هذه الأسس والحديث عنها من خلال التوجيهات التي تضمنتها آيات هذه السورة.

٤- بيان ما حوته السورة من منهج للتعامل مع أصناف المجتمع

---

(١) انظر: في ظلال القرآن(٦:٣٣٣٥-٣٣٣٧) بتصرف

(٢) وذلك من خلال تدريسي لمادة التفسير الموضوعي في قسم الدراسات القرآنية بكلية التربية بجامعة الدمام، ولدي بحوث في هذا المجال.

المتعددة(المؤمن- المسلم- الفاسق- المنافق)

وسوف ينتظم هذا البحث بإذن المولى بمقدمة وتمهيد وأسس وخاتمة :

مقدمة: وتتضمن الحديث عن أهمية الموضوع وسبب اختياره وقد تقدمت.

تمهيد : ويتضمن الحديث عن اسم السورة، ووجه تسميتها، وعدد آياتها، ، والمرحلة التي نزلت فيها، وسبب نزولها، ومحورها.

أسس البناء الحضاري للمجتمع:

يمكن من خلال دراسة سورة الحجرات وتدبر آياتها، والعيش في ظلالها أن نحدد جملة من الأسس والمبادئ التي يقوم عليها البناء الحضاري للمجتمع، وهذه الأسس هي:

الأول: الإيمان

الثاني: الطاعة

الثالث: الأخوة

الرابع: العدل

الخامس: الأخلاق

السادس: المساواة

السابع: الرقابة الذاتية

الثامن: التوبة

الخاتمة والتوصيات: وفيها أهم التوصيات والنتائج.

إنّ الأسس التي قام عليها المجتمع الحضاري لا زالت موجودة في القرآن، وليس كما يظنّ المهزومون نفسياً الذين يرون أنّ قوة الأمة لن

تعود في عصر التقنية، هذا وأسأل الله أن يعينني على إنجاز هذه الدراسة، وأن يأخذ بيدي لتحقيق الهدف المنشود، من أجل أن أساهم في وضع لبنة في هذا الصرح العظيم، إنّه وحده هو المسؤول، وعليه توكلي واعتمادي.

التمهيد:

يحسن بنا قبل أن نتحدث عن الأسس والمبادئ التي يقوم عليها المجتمع في ضوء سورة الحجرات أن نمهد بين يدي السورة بذكر بعض الأمور التي تتعلق بها، وهي:

اسم السورة: اشتهرت سورة الحجرات بهذا الاسم في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة، وقد وردت هذه التسمية في بعض أقوال الصحابة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: نزلت سورة الحجرات بالمدينة[1]، وعن ابن الزبير مثله[2]، وليس للسورة اسم-فيما أعلم- غير هذا الاسم.

وجه التسمية: سمّيت بذلك-والله أعلم- لأنّه ذكر فيها لفظ الحجرات في قوله تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، ونزلت في قصة نداء وفد بني تميم رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته كما سيأتي، فعرفت بهذه الإضافة[3]، ولم ترد هذه اللفظة إلاّ في هذه السورة.

قال المهايمي: سمّيت بها لدلالة آياتها على سلب إنسانية من لا يعظم

(١) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن كما في الإتقان للسيوطي(١:١٤)، والبيهقي في الدلائل(٧:١٤٢)عن عكرمة والحسن، وزاد السيوطي نسبته في الدر(٦:٨٥) للنحاس وابن مردويه.

(٢) أورده السيوطي في الدر(٦:٨٥) وعزاه لابن مردويه.

(٣) انظر: التحرير والتنوير(٢٦:٢١٣)

رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية التعظيم ولا يحترمه غاية الاحترام، وهو من أعظم مقاصد القرآن[١].

عدد آياتها: عدد آياتها ثماني عشرة آية في عد الجميع بلا خلاف[٢].

المرحلة التي نزلت فيها: سورة الحجرات مدنية باتفاق أهل التأويل[٣]، نزلت في عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة، كما يدل على ذلك سبب نزول قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ كما سيأتي-إن شاء الله تعالى- وهذا يعني أنّها نزلت على مجتمع يغلب عليه الإيمان، وهذا واضح من خلال النداءات الإيمانية المتكررة في السورة[٤]، والتي كان الهدف منها ترسيخ القيم والمبادئ التي على أساسها أراد القرآن بناء المجتمع، ونلمس من تأخر نزول السورة أنّ من أفراد المجتمع من بلغ الإيمان عنده مرتبة، حتى أصبح رفع الصوت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ذنباً يوجب النهي عنه، كما أنّ هناك من يخلّ بمقتضيات الأخوة الإيمانية، فتحصل منه السخرية واللمز والغيبة للآخرين، وأنّ هناك من هو حديث عهد بالإسلام يحتاج إلى رعاية وتوجيه حتى فيما يتعلق بالإيمان، وهناك فئات في المجتمع ينبغي الحذر في التعامل معها، وبهذا جاءت السورة بمنهج واضح وأسس متعددة للتعامل مع فئات المجتمع المختلفة.

---

(١) انظر: تفسير القاسمي(١٠٥:١٥)

(٢) انظر: التحرير والتنوير(٢١٣:٢٦)

(٣) انظر: التحرير والتنوير(٢١٣:٢٦)

(٤) ورد في السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خمس مرات، وتكرر لفظ "الإيمان" أربع مرات، ولفظ "المؤمنون "ثلاث مرات

سبب نزولها: وردت عدة أسباب لنزول هذه السورة، حيث إنّ بعض الآيات ورد فيها أكثر من سبب، وتجنباً للإطالة فسأقتصر على ذكر ما صح من أسباب النزول، مع التنبيه إلى ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية من أنّ قولهم: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة أنّه سبب للنزول، ويراد به تارة أنّ هذا داخل في الآية، وإن لم يكن السبب، كما تقول: عني بهذه الآية كذا[1]، ويلاحظ أيضاً أنّ نزول الآية في شخص بعينه أو في قوم مخصوصين لا يعني أنّ الآية لا تشمل غيرهم، فإنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإليك ما صح من سبب النزول:

١ – قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾

أخرج البخاري عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه أنّه قدم ركب من بني تميم على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال أبوبكر: أمّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلاّ خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ حتى انقضت الآية[2].

٢ – قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾

أخرج البخاري عن ابن أبي مليكة، قال: كاد الخيّران أن يهلكا، أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، حين قدم عليه ركب بني تميم، وذكر نحو حديث ابن الزبير، إلى

(١) انظر: مقدمة في أصول التفسير(ص٤٨)

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، ح٤٨٤٧

أن قال: فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية[1].

٣- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾.

أخرج الطبري من طريق أبي سلمة، قال: حدثني الأقرع بن حابس أنّه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فناداه، فقال: يا محمد إنّ مدحي زين، وإنّ شتمي شين، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ويلك ذلك الله، فأنزل الله﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[2].

٤ – قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾

هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة كما ذكر كثير من المفسرين، وقد روي ذلك من طرق، من أحسنها-كما قال ابن كثير-ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو الحارث بن ضرار، قال الإمام أحمد: ثم ساق ابن كثير إسناد أحمد، وذكر قصة بني المصطلق مع الوليد بن عقبة حينما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقبض ما كان

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾، ح٤٨٤٥

(٢) انظر: تفسير الطبري(١٢٢:٢٦)، وأخرجه أحمد في المسند(٤٨٨:٣)و(٣٩٣:٦-٣٩٤)، والطبراني في الكبير(٣٠٠:١)، وصححه السيوطي في لباب النقول(ص١٩٦)، وقال الهيثمي في المجمع(١١١:٧): رواه أحمد والطبراني، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع، وإلاّ فهو مرسل كإسناد أحمد الآخر. قلت: قد صرّح أبو سلمة بالتحديث عن الأقرع في رواية الطبري.

عندهم من الزكاة، إلى أن قال: فنزلت الحجرات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ ﴾ إلى قوله ﴿ حَكِيمٌ ﴾[1].

قال ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث، وذكر بعده عدة روايات: وكذا ذكر غير واحد من السلف في هذه الآية أنّها نزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم[2].

٥- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾

روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلّم لو أتيت عبدالله بن أبيّ، فانطلق إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه-وهي أرض سبخة-فلمّا أتاه النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: إليك عنّي، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك، فغضب لعبدالله رجل من قومه، فشتما، فغضب لكلّ واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والنعال والأيدي، فبلغنا أنّها أنزلت ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾[3].

٦- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ﴾

---

(١) انظر: المسند(٤:٢٧٩)، وانظر: تفسير ابن كثير(٧:٣٥٠)، وقال السيوطي في الدر المنثور(٦:٩١): رواه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني بسند جيد، وقال الهيثمي في المجمع(٧:١٠٩): ورجال أحمد ثقات.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير(٧:٣٥٢)، وانظر: تفسير الطبري(٢٦:١٢٣)، وأسباب النزول للواحدي(ص٣٩٠)

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، ح٢٦٩١

روى البخاري في الأدب المفرد من حديث أبي جبيرة بن الضحاك، قال: فينا نزلت-في بني سلمة-﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾، قال: قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل إلاّ له اسمان، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "يا فلان"، فيقولون: يا رسول الله إنّه يغضب منه[1].

٧- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الحجرات: ١٧.

أخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن عبدالله بن أبي أوفى: أنّ ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله أسلمنا و لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل الله﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾.

حسّنه السيوطي[2]، وقال الهيثمي[3]: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه: الحجاج بن أرطاة، وهو ثقة، ولكنّه مدلّس، وبقيّة رجاله رجال الصحيح. قلت: يشهد له ما أخرجه الطبري بإسناد صحيح عن قتادة مرسلا مثله[4].

وقد وردت روايات عن ابن عباس رضي الله عنهما بتعيينهم،

---

(١) انظر: الأدب المفرد(ص١٢١)، وأخرجه أحمد(٦٩:٤)(٣٨٠:٥)، والطبري(١٣٢:٢٦)، والترمذي(٣٦٢:٥) وقال: حسن صحيح، ، والحاكم(٤٦٣:٢٩) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير(٣٩٠:٢٢)، وقال الهيثمي في المجمع(١١١:٧): رجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر: لباب النقول(ص١٩٩)

(٣) انظر: مجمع الزوائد (١١٢:٧).

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٤٢:٢٦)

وأنّهم: بنو أسد بن خزيمة، أخرجه النسائي(1) والبزار(2).

والمتأمل في ما تقدم من أسباب الترول يلحظ أنّ هذه الأحداث التي وقعت كانت سبباً في نزول الآيات القرآنية التي تتضمن جملة من القيم والمبادئ التي يقوم على أساسها المجتمع، وهي: الإيمان، والطاعة، والأخلاق، والعدل، والمساواة.

محور السورة: النظرة العاجلة للسورة توحي بأنّها تشتمل على موضوعات متفرقة، ولكن المتأمل في السورة والمتدبر لآياتها، يستطيع أن يكتشف أنّ السورة تتناول موضوعاً واحداً، وتدور حول محور معين، وهو بناء المجتمع، وذلك من خلال المبادئ والأسس التي تضمنتها هذه السورة الكريمة، هذه الأسس التي إذا أخذ بها المجتمع، وتمثل بها أفراده واقعاً حيّاً، وسلوكاً عملياً في تعاملهم مع الناس بشتى أصنافهم، وقبل ذلك وبعده في علاقتهم مع ربهم، وتأدبهم مع نبيّهم صلى الله عليه وسلم، فإنّها من شأنها بلا شك أن تقيم مجتمعاً رفيعاً نظيفاً سليماً.

هذه الأسس تجمع بين الرقابة الذاتية للضمير وبين التشريع الذي يحكم سلوك الإنسان وتصرفاته، وهي أيضاً يتكامل فيها عمل الفرد مع جهد الدولة والمجتمع، ويتسق فيها ظاهر المسلم مع باطنه، أسس ينبثق عنها منهج فكري في الحكم على الأقوال والأفعال، إضافة إلى نظام عملي

---

(1) انظر: تفسير النسائي(٢:٣٢٤) وفي إسناده عطاء بن السائب اختلط بآخرة، كان يرفع عن سعيد بن جبير أشياء لم يكن يرفعها. انظر: الكواكب النيرات(ص٣٢٢)

(2) انظر: تفسير ابن كثير(٧:٣٦٩) وفي إسناده أبو عون، وهو ثقة إلاّ أنّ حديثه عن سعيد مرسل كما قال أبو زرعة. انظر: تهذيب التهذيب(٩:٢٨٦)

لكن يشهد له ما أخرجه الطبري في تفسيره(٢٦:١٤١)بإسناد صحيح عن مجاهد، قال: أعراب بني أسد بن خزيمة.

لمواجهة ما يقع بين الناس فتن ونزاعات.

يقول سيد قطب رحمه الله: وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة، هو أنّها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة، لعالم رفيع كريم نظيف سليم، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم؛ والتي تكفل قيامه أولاً، وصيانته أخيراً، عالم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله، عالم نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة، عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره[1].

ووجه المناسبة بين اسم السورة ومحورها ظاهر، فكما أنّ الحجرات مأوى وملجأ للناس تحميهم وتحافظ عليهم من الشرور والآفات، كذلك الأسس والمبادئ التي تضمنتها هذه السورة فمن شأنها أن تحافظ على المجتمع وتقيه من عوامل الضعف والانهيار.

أسس البناء الحضاري للمجتمع في ضوء سورة الحجرات:

يبني القرآن المجتمع المسلم على منهجية فريدة تميّزه عن غيره من المجتمعات الأخرى، تقوم هذه المنهجية على طريقة البناء المتكامل وإرساء الأسس السليمة التي تكوّن بناءً متجانساً متماسكاً يؤدي إلى مساعدة المجتمع في الوصول إلى التقدم الحضاري المنشود.

والناظر إلى المجتمعات اليوم يجد أنّها تعيش حالة من التخبط والتردي في كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، و لم يكن ذلك بسبب شيء سوى بعدها عن منهج القرآن

(١) انظر: في ظلال القرآن(٦:٣٣٣٥)

الكريم في بناء المجتمع، واستبدال مناهج وأنظمة من وضع البشر بها، فشتان بين البناء الراسخ المطمئن الذي شيّد على تقوى الله ورضائه، وبين بناء قائم على أسس مخلخلة قابلة للانهيار في أي لحظة، وصدق الله في قوله ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ التوبة: ١٠٩.

فإذاً لا بد من الرجوع إلى القرآن الكريم، ودراسته وتدبره والوقوف عند سوره، واستنطاق آياته من أجل استخراج الأسس والمبادئ التي يبنى عليها المجتمع؛ لأنّ الذي أنزل القرآن هو الذي خلق البشر، وهو أعلم سبحانه بما يصلحهم ويقوم عليه أمر دينهم ودنياهم، ونحن سوف نختار -بإذن المولى- سورة جليلة عظيمة من سور القرآن، نحلل آياتها، ونتدبر معانيها، ونقف عند حقائقها؛ لكي نستنبط الأسس والمبادئ التي يقوم عليها المجتمع، هذه السورة هي سورة الحجرات.

وقبل أن نعرض لأسس بناء المجتمع في ضوء هذه السورة، يحسن بنا أن نذكر شيئاً مما تدعو الحاجة إليه فيما يتصل بمفهوم المجتمع ومعنى الحضارة وما المراد بالأسس.

الأسس: جمع أسّ، والأسّ كما يقول ابن فارس يدلّ على الأصل والشيء الوطيد الثابت، فالأسّ أصل البناء(١).

والمجتمع لغة: مشتق من جَمَعَ، فالجمع ضم الأشياء المتفقة وضده التفريق والإفراد، ولقد أجاد صاحب لسان العرب حين قال في بيان معنى هذه اللفظة: تجمع القوم: أي اجتمعوا من هاهنا وهاهنا(٢).

---

(١) انظر: معجم المقاييس(١٤:١)

(٢) انظر: لسان العرب(٥٣:٨)

أمّا اصطلاحاً، فتتعدد التعريفات بحسب تباين النظرات تبعاً للتخصصات، ولعل التعريف الأقرب إلى بحثنا هو ما يعرّف المجتمع بأنّه: عدد كبير من الأفراد المستقرين، تجمعهم روابط اجتماعية ومصالح مشتركة، تصحبها أنظمة تضبط السلوك وسلطة ترعاها[١].

والحضارة لغة(بكسر الحاء وفتحها): الإقامة في الحضر، والحاضر: المقيم في المدن والقرى، ويقال للمقيم على الماء حاضر، وقوم حضار: إذا حضروا المياه[٢].

أمّا من الناحية الاصطلاحية فللحضارة تعريفات مختلفة، ولعل التعريف المناسب هو أنّ الحضارة: مجموعة المفاهيم الموجودة عند مجموعة من البشر، وما ينبثق عن هذه المفاهيم من مُثل وأفكار، ونظم وقوانين ومؤسسات تعالج المشكلات المتعلّقة بأفراد هذه المجموعة البشرية وما يتصل بهم من مصالح مشتركة[٣].

وبناء على ما تقدم يمكن بيان المراد بأسس البناء الحضاري للمجتمع بأنّها: هي الأصول والقواعد والمبادئ التي يقوم عليها المجتمع، وتضمن استمراره وبقاءه، وما ينبثق عن هذه الأصول من قيم وأخلاق وآداب تنظم حياة الأفراد، وتعالج ما يحدث بينهم من مشكلات.

وبعد هذا التمهيد نشرع في بيان الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمع في ضوء سورة الحجرات، وهي:

أولاً: الإيمان بالله :

وهو الأساس الأول والأهم الذي يبنى عليه المجتمع، ولا شك أنّ

(١) انظر: المجتمع والأسرة في الإسلام ، د محمد طاهر الجوابي (ص ١٢)

(٢) انظر: لسان العرب(٤:١٩٧)

(٣) انظر: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، أحمد عبد الرازق أحمد(ص١١)

موضوع الإيمان مبثوث في ثنايا هذه السورة[١]، وذلك من خلال النداءات المتكررة التي نادى الله بها عباده المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهو خطاب تشريف وتكليف، تشريف لهم بهذه النعمة العظيمة والمنّة الكريمة من الكريم الوهاب﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾، وتكليف بتبعات هذا الإيمان من الأوامر والنواهي، والتي أتت مباشرة عقب هذه النداءات الإيمانية في السورة، وبهذا يتبين أهمية الإيمان ودوره في بناء المجتمع، إذ بدونه لا يمكن أن يلتزم الإنسان بالسلوك القويم والأخلاق الحميدة، ولا تتحقق الدافعية لدى الأفراد للعمل لصالح المجتمع؛ وهذا هو سبب الفشل الذي منيت به النظريات الأرضية التي تجعل المنفعة هي الأساس، أو التي تقول أنّ الغاية تبرر الوسيلة، لكن الإيمان بالله هو الذي يرد الأمر كله للخالق سبحانه﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾الأعراف: ٥٤.

وتظهر أيضاً أهمية الإيمان في بناء المجتمع في هذه السورة من خلال الحوار الذي دار بين الأعراب[٢]وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾الحجرات: ١٤، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان، ولا زعماً يدعى، ولكنّ الإيمان حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وقد قيل: ليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتحلّي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه

(١) ورد لفظ الإيمان في السورة بجميع اشتقاقاته خمس عشرة مرة، ستة منها بلفظ(آمنوا)، وأربع بلفظ(الإيمان)، وثلاث بلفظ(المؤمنون)، وواحدة بلفظ(آمنا) و(تؤمنوا)، وهذا التنوع والكثرة في ورود هذه اللفظة في السورة يدل دلالة واضحة على أهمية هذا الأساس في بناء المجتمع وتماسكه.

(٢) وهم بنو أسد بن خزيمة، كما تقدم في سبب نزول الآية (انظر: ص ٤٣١) من هذا البحث.

العمل[١]. ولذلك ردّ الله عليهم، فقال﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أي: استسلمنا وأذعنا خوف السبي والقتل[٢]﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد[٣]، يوضح ذلك قوله صلى الله عليه وسلم" الإسلام علانية والإيمان في القلب"[٤].

ثمّ بيّن الله تعالى حقيقة الإيمان ناصعة كضوء الصبح، واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، حتى لا تختلط الأمور وتلتبس الحقائق، فقال﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فأشارت الآية أنّ حقيقة الإيمان تتألف من جانبين:

الأول: ما يستقر في القلب من التصديق والمحبة لله ورسوله، وهذا التصديق وهذه المحبة تتصفان بالثبات والقوة، فلا يزعزعهما هجمات الشك والارتياب، ولا تؤثر فيهما أعاصير الشبهات ولا الشهوات، مهما كانت قوية، وبذلك يبقى المجتمع متماسكاً مترابطاً بفعل الإيمان، لا تؤثر فيه رياح الشبهات، ولا فتن الشهوات.

الثاني: ما يتولد من هذا الإيمان الصحيح الخالص من أعمال، يأتي على رأسها الجهاد بالمال والنفس، فالجهاد ذروة سنام الإسلام[٥]، فالمؤمن

(١) روي معناه بسند جيد عن الحسن البصري. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير(٥:٣٥٦)

(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٦:١٤٢) عن مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير

(٣) تفسير ابن كثير(٧:٣٦٨)

(٤) رواه أحمد في المسند(٣:١٣٥)، وقال الهيثمي في المجمع(١:٥٢): رجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة وثقه ابن حبان وغيره وضعفه آخرون.

(٥) جزء من حديث طويل رواه أحمد(٥:٢٤٥-٢٤٦)، والطبراني في الكبير(٢٠:٦٣) من =

يضحي بنفسه وماله من أجل بناء المجتمع والحفاظ على كيانه.

ومن خصائص هذا الإيمان أنّه متحرك يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو أيضاً إيمان محرك يدفع صاحبه للعمل وبناء المجتمع وإصلاحه ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾النور: ٥١، وقد وصف الله القرآن بأنّه روح وبأنّه نور؛ لأنّ القرآن يولّد في القلب الإيمان، والإيمان للإنسان بمثابة الروح للجسد يبعث الحياة في الجسد، فالإيمان روح يحرك الإنسان ويبعث الحياة في قلبه وفي جوارحه، وهو كذلك نور يهدي الإنسان في دجى الظلمات إلى الصراط المستقيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾الشورى: ٥٢.

وهذا الإيمان هبة جليلة ومنحة عظيمة يمنّ الله بها على من يشاء من عباده، وفق ما يعلمه –سبحانه– من استعدادهم واستحقاقهم لهذه الهبة، فإن يكن منّ حقيقي فهو لله سبحانه وتعالى الذي هداهم للإيمان ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ فعلينا أن نتوجه إلى الله وحده بأن يمنحنا الإيمان، فهو سبحانه وحده الذي حبب الإيمان في نفوسنا، وحسّنه في قلوبنا ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ .

ثانياً: الطاعة:

ذكرنا في التمهيد أنّ محور سورة الحجرات هو بناء المجتمع على هدي الوحي المنزل، ولذا فقد تقدمت عملية البناء هذه افتتاحية، تضمنت

=

حديث معاذ في قصة غزوة تبوك، وقال الهيثمي في المجمع(٥:٢٧٣): وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف، وقد يحسّن حديثه.

بيان أنّ هذا المجتمع المراد بناؤه لا بد له من قيادة تستمد شـرعيتها مـن طاعتها لله ورسوله، والعمل بما جاء به، هذه القيادة تتطلب من أتباعها المؤمنين بشرعيتها الالتزام بجملة من الأمور التي يجب التسليم بها قبل البدء ببناء المجتمع، حتى تتحقق الطاعة على الوجه الأكمل، وإلاّ سيكون هـذا البناء على أسس غير سليمة.

بدأت السورة بقوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو خطاب من الله للمؤمنين به المقرين بوحدانيته، بأن لا يقدّموا بين يدي الله ورسوله، وخلاصة أقوال المفسرين في معنى التقدّم أنّه على نوعين:

الأول: السبق في القول والعمل، وإن لم يكن فيه مخالفة، قال ابن كثير: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، كونوا تبعاً له في جميع الأمور [1].

الثاني: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وقد جمع الإمام الطبري بين القولين، فقال: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله[3].

والنهي عن التقدّم في هذه الآية عام، يشمل الأقوال والأفعال، وسواء قدّم المرء قوله أو قول غيره، وسواء قدّم عقله أو عقل غيره[4]،

(١) انظر: تفسير ابن كثير(٣٤٥:٧)

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره(١١٦:٢٦) بسند حسن

(٣) انظر: تفسير الطبري(١١٦:٢٦)

(٤) انظر: تفسير الطبري(١١٦:٢٦)، وتفسير ابن كثير(٣٤٥:٧)، وبدائع التفسير، =

ويدخل في ذلك تشريع ما لم يأذن به الله، وتحريم ما لم يحرمه الله، وتحليل ما لم يحلّه؛ لأنّه لا حرام إلاّ ما حرّمه الله، ولا حلال إلاّ ما أحلّه الله، ولا دين إلاّ ما شرعه الله[1].

فالواجب هو اتباع ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلّم وطاعته، لا التقدّم بين يدي الله ورسوله، قال تعالى﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١، ولا بد أيضاً من أن يكون مصدر التلقي واحداً، وهو الوحي الإلهي، فشتان بين من تكون طاعته لله ورسوله، وبين من تتعدد مصادر التلقي عنده، فتتفرق به السبل، ويعيش حالة من الحيرة والقلق، قال تعالى﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾الزمر: ٢٩.

فالمجتمع الذي يبنى على أساس طاعة الله ورسوله، وعلى وحدة مصدر التلقي، تتوحد كلمته ويكون في مأمن من التشتت والتمزق في صفوفه، ويبقى بعيداً عن التفرق والاختلاف المذموم، ويعيش أفراده في تجانس وانسجام تام، بخلاف المجتمع الذي يخضع لتوجهات متعددة من الشرق والغرب كما هو حال أكثر المجتمعات الإسلامية والعربية ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ الأنعام: ١٥٣ .

وقد بيّن القرآن الكريم أهمية الطاعة، وأثرها في قوة البناء ووحدة الكلمة وتماسك الأمة والثبات في أوقات الأزمات والنصر على الأعداء،

=

لابن القيم (٤:١٧٧)

(١) انظر: أضواء البيان(٧:٦١٤)

فقال تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ الأنفال: ٤٦ .

فقد أمرهم أن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك[١]، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضا فيختلفوا، فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم ﴿ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ أي قوتكم ووحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال[٢].

فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلاّ حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيس للنزاع بينهم- مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة- فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها[٣].

هذا وقد تجلى أساس الطاعة في هذه السورة بعدد من التوجيهات الربانية التي جاءت مصدرة بالنداء الإيماني ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والتي تضمنت جملة من الآداب والأخلاق أمر المؤمنون بالالتزام بها برهاناً على صحة إيمانهم وكمال طاعتهم لله، فأمروا بالسعي والمبادرة إلى الإصلاح بين الطائفتين المتنازعتين، ونهوا عن السخرية والاستهزاء بالناس، وترك الاغتياب وتتبع العيوب، والتنقص من الآخرين بوصفهم بما يكرهون من الأسماء والصفات، والابتعاد عن الظنون السيئة التي تفضي إلى تتبع

(١) أي في غزوة بدر حين التقى المسلمون مع كفار قريش
(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني(٢:١١٠-١١١)
(٣) انظر: في ظلال القرآن(٣:١٥٢٨-١٥٢٩)

العورات والسرائر والوقوع في الغيبة المحرمة.

وختمت السورة بالحض على طاعة الله ورسوله وذلك عن طريق ربطها بأمرين: حصول الأجر الكامل، وغفران الذنوب﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

ثالثاً: الأخوة :

وهي من أهم الأسس التي حرص الإسلام على غرسها في المجتمع، وعدّها القرآن من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين بعد نعمة الإيمان، فقال تعالى﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ آل عمران: ١٠٣، وكان أول عمل قام به النبيّ صلى الله عليه وسلّم بعد هجرته للمدينة بعد بناء المسجد، هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد جعل الرسول صلّى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً؛ لا لفظاً فارغاً، وعملا يرتبط بالدماء والأموال؛ لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر(١).

وقد جاءت سورة الحجرات لتقرر هذا الأصل العظيم من أصول بناء المجتمع، الذي تنتظم فيه علاقة المسلم بإخوانه المسلمين، فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ وهذه الآية تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم، فالجملة موقعها موقع العلة، وقد بنى هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة(٢)، والمراد أخوة الدين؛ لأنّ أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإنّ أخوة النسب

---

(١) انظر: فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالي(ص١٩٢)

(٢) انظر: التحرير والتنوير(٢٦:٢٤٣)

تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب[١].

وهذه الآية فيها دلالة قوية على وجوب الأخوة بين المسلمين؛ لأنّها جاءت بصيغة القصر الذي يفيد حصر حالهم في حال الإخوة، وكأنّها تخبر عن حقيقة ثابتة، وأمر واقع مفروغ منه[٢]، وهذه الحقيقة قررتها آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾الحشر: ١٠، وقوله تعالى ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ الأنفال: ٦٣، ثمّ ثنى بتقريرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، منها قوله: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة، فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة[٣]، وشبّه النبيّ صلي الله عليه وسلم حال المسلمين في ترابطهم وتآلفهم وتعاضدهم بالجسد الواحد الذي يحس بمشاعر وآلام جميع أجزائه، فقال: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[٤].

(١) انظر: تفسير القرطبي(١٦:٣٢٢-٣٢٣)

(٢) جاءت الآية بصيغة الجملة الخبرية التي تفيد تقرير الأمر وتأكيد وقوعه، و لم تأت بصيغة الجملة الإنشائية التي تفيد الأمر بالطلب، إذ لو كانت كذلك لكانت الأخوة غير موجودة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب "لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه"، ح٢٤٤٢

(٤) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم =

وهذه الأخوة تقتضي المحبة والتعاون والتناصح، كما أنّها تستدعي الإصلاح في حال وقوع الخصومة والاقتتال بين الأطراف المتنازعة؛ لأنّ الاقتتال بين المسلمين خروج عن قاعدة الأخوة التي قررتها الآية، ولذلك جاء بعدها التعقيب المباشر بقوله﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾وإذا لم يُجد الصلح مع أحد الطرفين، فيجب على المسلمين قتاله وإلزامه بذلك، من أجل المحافظة على هذا الأصل العظيم.

ومن مقتضيات الأخوة والتي جاءت السورة لتقريرها وتأكيدها إزالة كل أسباب العداوة والاقتتال بين المسلمين، بدءً بالنهي عن احتقار الناس والاستهزاء بهم، ومروراً بالتحذير من الاغتياب وتتبع المعاب(١)، ثم التهديد الشديد لمن يدعو أخاه بما يكرهه من اسم أو صفة(٢)، وانتهاء بالابتعاد عن الظن الذي ليس في محله، وترك التجسس المفضي إلى تتبع عورات الآخرين.

وهكذا الأخوة في الإسلام لها وضع خاص ومميز؛ حيث تجمعها وحدة العقيدة، أخوة في السراء والضراء، فمتى اجتمعت أخوة الإسلام بين شخصين يكونان كالشخص الواحد في تعاونهما، وللإخاء بين المسلمين صور كثيرة لا يتسع المجال لذكرها- هنا- ولكن هذا الأساس من أهم الأسس في بناء المجتمع المسلم المنشود.

رابعاً: العدل:

وهو من أهم الأسس التي يبنى عليها المجتمع الصالح، فكلّ مجتمع لا

=

وتعاضدهم، ح٢٥٨٦

(١) انظر: مفردات الراغب(ص٧٤٧)

(٢) تفسير الطبري(٢٦:١٣٣) وقال: وهو أولى الأقوال في تأويل الآية

يقوم على العدل فمصيره إلى الزوال، ولذلك دعا القرآن إلى العدل وأمر به في العديد من الآيات[١]، وهذا المعنى رسمه علماؤنا السابقون في العبارة الشهيرة(العدل أساس الملك)[٢] ، فإذا فُقد العدل فلا يمكن أن تنتظم الحياة بأي حال من الأحوال.

وقد أكدت سورة الحجرات هذا الأمر، ودعت إلى إقامته، حتى مع الفئة الباغية[٣] التي نصحت و لم تستجب للنصيحة، و لم ترجع إلى الحق إلاّ بعد قتال يجر-في الغالب- الخراب والدمار للمجتمع، ومع هذا كلّه يقول الله تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ ﴾ فإذا كان العدل مطلوباً مع هذه الفئة الظالمة المعتدية، فهو فيما سوى ذلك من أمور المسلمين الدينية والدنيوية أولى وأوجب.

ونلاحظ في الآية أنّ الإصلاح الأول مطلق﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾أمّا الثاني فمقيد بالعدل والقسط﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ﴾ مع أنّ الإصلاح الأول لا بد فيه أيضاً من العدل والإقساط؟

والجواب -والله أعلم -أنّ في الأمر الأول ليس هناك ما يدعو إلى الميل إلى طائفة دون أخرى، أمّا الثاني فإنّ النفوس مجبولة على الميل للمظلوم؛ لأنّ هناك طائفة باغية معتدية، فناسب أن ينبه إلى العدل

(١) وردت لفظة "العدل" بمشتقاتها في القرآن في أكثر من ثلاثين موضعاً، ومثلها لفظة "القسط".

راجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص٢٨٦)

(٣) البغي: هو طلب العلو بغير الحق، والفئة الباغية: هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام العادل. انظر: لسان العرب(١٤:٧٨)

والإقساط.

وقيل: الإصلاح الأول لوقف القتال، والثاني لتقدير الأضرار فننظر ماذا تلف عن كلّ طائفة، ثمّ نسوّي بينهما[1].

والآية فيها أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإنّ الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما، لقرابة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل[2]، ثم أكد ذلك بالأمر بالقسط حتى يلتزم الذين يقومون بالصلح بينهما العدالة التي لا يشوبها أي حيف أو جور على إحدى الطائفتين، فقال﴿ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ ﴾ أي: حققوا العدل في الحكم بينهم، وأزيلوا الظلم الذي كان موجوداً، أو سيوجد[3]، وهو أمر للمسلمين بالعدل في كل أمورهم بعد أمرهم بالعدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾أي: يحب العادلين، ، وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجلّ، وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا[4].

وعلى هذا يكون الإقساط مكملاً للعدل، فالعدل يكون في الحكم، والإقساط يكون في تنفيذه، وفي أداء الحقوق.

أو أنّ العدل هو الجانب الايجابي في الحكم، وأمّا الإقساط فهو إزالة الظلم من جذوره، وكلّ الأسباب التي أدت إلى المشكلة، حتى لا يتكرر

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم(مجموعة من السور)، للشيخ محمد العثيمين(ص٣٥)

(٢) انظر: تفسير السعدي(١٣٣:٧)

(٣) انظر: التفسير الكبير، للإمام الرازي(١٢٩:٢٨)

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ح١٨٢٧

الظلم، يقول الإمام الرازي: الإقساط: إزالة القسط وهو الجور، والقاسط هو الجائر[1].

ولذلك نجد الآيات بعد ذلك مباشرة ذكرت الأسباب التي تزيل الظلم بين الناس، وتحقق العدل، فقال تعالى﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ فقررت هذه الآية الأخوة الحقيقة المبنية على الإيمان الصادق، ودعت إلى الإصلاح، وجعلته مسؤولية اجتماعية، وأمرت بتقوى الله؛ لأنّها تقي الإنسان من الظلم، كلّ ذلك من أجل أن تتحقق الرحمة، وتصبح أساساً للتعامل بين أفراد المجتمع.

مما تقدم يتبين لنا أهمية العدل في حياة الفرد، وفي بناء المجتمع، وقيام الحضارات وازدهارها، وأنّ التجارب والوقائع الحقيقية تدلّ بوضوح على أنّ هلاك المجتمعات وتدمير الحضارات إنّما يكون بسبب الظلم والبغي، كما قال تعالى ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الأنعام: ٤٧.

خامساً: الأخلاق:

الأخلاق لها تأثير ايجابي في الفرد والمجتمع، وهذا التأثير لم يكن الاهتمام به من أجل الثواب الأخروي والفوز برضوان الله فحسب، بل هو منهج عملي فاعل في التأثير على بناء المجتمع، فما خلا مجتمع من الأخلاق الحسنة إلاّ وعمّه الخراب والدمار، وهذا ما يشهد به واقع أكثر المجتمعات المعاصرة، ولذلك كان اهتمام القرآن الكريم بالجانب الأخلاقي، حيث مدح الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾القلم: ٤.

---

(١) انظر: التفسير الكبير (١٢٩:٢٨)

وسورة الحجرات على وجازتها سورة جليلة عظيمة، مليئة بالمثل الرفيعة والآداب السامية، تضمنت حقائق التربية الخالدة وأسس بناء المجتمع الحضاري، حتى سماها بعض المفسرين سورة الأخلاق[1]، وقد عنيت بتربية المؤمنين على مكارم الأخلاق وما ينبغي لهم في تعاملهم وحسن أدبهم مع الخالق والخلق.

ابتدأت السورة بالخلق الرفيع والأدب الجم الذي أدب الله به عباده المؤمنين تجاه شرعه وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو أن ألاّ يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهي، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم، ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه، ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه[2]﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾

ثمّ انتقلت إلى خلق آخر وهو خفض الصوت حين الحديث مع الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيماً لقدره الشريف، واحتراماً لمقامه السامي، فإنّه ليس كغيره من الناس، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التعظيم والإجلال﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ[3] ﴾ .

ومن الخلق الخاص إلى الخلق العام، تنتقل السورة لتقرير أسس المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم الاستماع للإشاعات المخترعة، وتدعوهم إلى التثبت من الأخبار المسموعة، خصوصاً إذا كان الخبر صادراً عن شخص غير عدل، أو إنسان متهم، فكم من كلمة نقلها فاسق

(١) انظر: صفوة التفاسير(٣:٢٣٠)، والتفسير المنير(٢٥:٢١١)، ولا دليل على هذه التسمية
(٢) انظر: في ظلال القرآن(٦:٣٣٣٦)
(٣) نهاهم عن رفع الصوت إذا تحدث بحضرته، وعن الجهر له بالقول إذا كان الحديث معه.

كانت سبباً في كوارث، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه جرّ وبالاً على المجتمع، وأدى إلى حصول انقسام وانشقاق في صفوف المسلمين، ولخطورة الشائعات وأثرها في هدم كيان المجتمع، يأتي منهج التعامل مع نبأ الفاسق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ [١] أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾ .

ودعت السورة أيضا إلى خلق الإصلاح بين الفئات المتخاصمة في المجتمع، ودفع عدوان الفئة الباغية، وإلى إقامة خلق العدل بين الطائفتين المتقاتلتين؛ لكونه من الأسس التي تبنى عليها المجتمعات ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴾.

ثمّ انتقلت السورة للحديث عن خلق التعامل مع المؤمنين في حضرتهم، فحذرت من احتقار الناس والاستهزاء بهم، وعن ذكر عيوب ونقائص الآخرين، سواء بالقول أو بالإشارة باليد أو بالعين، ونهت عن دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة[٢] ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ [٣] وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ ﴾.

---

(١) وهذه قراءة الجمهور، وقرأ حمزة والكسائي "فتثبتوا" من التثبت، والتبيّن: تطلّب البيان، وهو ظهور الأمر، والتثبّت: التحري وتطلب الثبات وهو ظهور الأمر. انظر: التحرير والتنوير(٢٦:٢٣١)

ولعل الفرق أنّ التثبت يكون في أصل الخبر، والتبين يكون في ما دل عليه من المعنى والتوقف في قبوله.

(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٦:١٣٣)

(٣) في التعبير ب﴿ أَنفُسَكُمۡ ﴾سر بديع، وهو أنّ المسلمين كنفس واحدة، فالذي يعيب أخاه كأنّه يعيب نفسه، قال الطبري: فجعل اللامز أخاه لامزاً نفسه، وهذا نظير قوله﴿ وَلَا =

ثمّ ذكرت الآيات خلق التعامل مع المؤمنين في غيبتهم، فنفرت من الغيبة والتجسس والظن السيئ، وحين حذرت من الغيبة جاء النهي في تعبير رائع، صورة رجل يجلس بجوار أخ له ميّت، وهو ينهش جسده، ويأكل لحمه، مشهد تنفر منه القلوب، وتشمئز منه النفوس، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾

وفي الحديث: إيّاكم والظنّ، فإنّ الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا[1]، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من خطورة الغيبة وتتبع عورات المسلمين، فقال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه من اتّبع عوراتهم يتّبع الله عورته، ومن يتّبع الله عورته يفضحه في بيته[2].

وهكذا نجد أنّ السورة عنت بوضع منهجٍ أخلاقي متكاملٍ، هذا المنهج كفيل بإذن الله ببناء مجتمع سليم العقيدة، نقي القلب، نظيف المشاعر، مهذب الأخلاق، عف اللسان، تصان فيه الحرمات، ولا تتبع فيه العورات، منهج وضعه الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه في دينه ودنياه﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الملك: ١٤.

=
تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾النساء: ٢٩، والمعنى: لا يقتل بعضكم بعضا. انظر: تفسير الطبري(٢٦: ١٣١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه، ح٥١٤٣

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الغيبة، ح ٤٨٨٠

سادساً: المساواة:

العدالة والمساواة من أهم الأسس التي يقوم عليها المجتمع، وهي سمة بارزة في التشريع الإسلامي، فكل فرد في المجتمع يعطى من الحقوق بقدر ما عليه من الواجبات، والظلم محرم بجميع أشكاله وألوانه مع المسلمين وغير المسلمين، وهذه المساواة لها أثرها البالغ على بناء المجتمع واستقراره.

وقد جاءت سورة الحجرات لتقرير هذا الأساس وتأكيده ، وذلك في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ فهذه الآية هي الأصل الذي ينبني عليه معاني ودلالات المساواة، فتبتدئ بخطاب الناس جميعاً، وتذكرهم بأنّ الله عز وجلّ خلقهم من ذكر وأنثى، أي أنّ أصل الخلقة واحد، فهم متساوون في أصل الخلقة، ثم إنّ التساوي في أصل الخلقة اقترن به أن جعل الله عز وجل الناس شعوباً وقبائل، وأنّ غاية هذه التعددية ليس للتفاخر والتناحر، وإنّما للتعارف والتآلف، فاختلاف الألسنة والألوان، وتنوع الطباع والأخلاق، وتباين المواهب والطاقات، لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التكامل والتعاون من أجل النهوض ببناء المجتمع، فهذا التنوع والاختلاف آية من آيات الله، قال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ الروم: ٢٢.

قال أبو حيان: أي من آدم وحواء، أو كل أحد منكم من أب وأم، فكل واحد منكم مساو للآخر في ذلك الوجه؛ فلا وجه للتفاخر[١] .

وقال ابن عطية: وقصد هذه الآية التسوية بين الناس[٢].

(١) انظر: البحر المحيط(٩:٥٢٢)

(٢) انظر: المحرر الوجيز(١٥:١٥٢)

وقد قرر النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ في أحاديثه الشريفة وسنته العملية، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: يا أيّها الناس، ألا إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على أعجمي، ولا لعجمي على عربيّ، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللَّهَ – عَزَّ وَجَلَّ – قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ [2] وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ. مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ. لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلاَنِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ[3].

ولمّا عيَّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه، قال له صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر، أعيّرته بأمّه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية[4]، وفي صحيح البخاري أنّ رجلين من المهاجرين والأنصار تشاجرا، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فلما بلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: ما بال دعوى جاهلية، دعوها فإنّها منتنة[5].

ثم تبين الآية ميزان التفاضل، والتفاضل لا يُضاد التساوي، وإنما هو درجة أخرى تتعلق بما يكتسبه الإنسان مما يُبلغه مترلةً فضلى عند الله سبحانه وتعالى، فليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٥:٤١١)

(٢) أي تكبر أهل الجاهلية

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب، ح٥١١٦، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم ٥١١٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ح٣٠

(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب(٥)، ح٤٩٠٥

حساب في ميزان الله، إنما هناك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس[١]، هذا الميزان يقوم على أساس التقوى والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وفي الحديث: إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[٢].

وهكذا نجد أنّ جميع أسباب العداوة والخصومة بين أفراد المجتمع تتلاشى، وأن كلّ أشكال التمييز العنصري بسبب لونٍ، أو عرقٍ، أو بيئةٍ ومكان، أو غيرها من الاعتبارات، كلّها تزول، وأنّ جميع القيم التي يتكالب عليها الناس تتوارى، ويبقى سبب واحد للتآلف والتعاون، وهو ألوهية الله للجميع، وتساويهم في أصل الخلقة، ويعلو لواء واحد يتسابق البشر للوقوف تحت رايته والتفيؤ بظلاله، وهو لواء التقوى.

وهنا لا بد من بيان مفهوم خاطئ شاع في عصرنا الحاضر عند بعض المسلمين، وهو أنّ المساواة تعني إزالة كل الفوارق وإذابة كل الحواجز من أي مصدر كانت، وأنّ الناس سواء لا يفرق بينهم دين ولا شرع، وهذا المفهوم يصادم نصوص القرآن الصريحة الواضحة التي تنفي المساواة بين بعض الأشياء، مثل قوله تعالى﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ السجدة: ١٨، وقوله تعالى﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾آل عمران: ٣٦، قال الشيخ ابن عثيمين: أخطأ على الإسلام من قال: إنّ دين الإسلام دين مساواة، بل دين الإسلام دين العدل، وهو الجمع بين المتساويين، والتفريق بين المفترقين... وقال: لم يأت

(١) انظر: في ظلال القرآن(٦:٣٣٤٨)

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ح٣٤

حرف واحد في القرآن يأمر بالمساواة أبداً، إنما يأمر بالعدل[1].

سابعاً: الرقابة الذاتية:

إنّ الرقابة البشرية – على أهميتها وحاجة الناس لها، سواءً كانت رقابة إدارية، أو مالية، أو أسرية، أو اجتماعية، أو فكرية – قد تغفل وقد تغيب، ولكن المفهوم الإسلامي يزرع معنى رقابة الله، وإحساس المسلم بهذه الرقابة الذاتية؛ ليكون على نفسه شهيداً حفيظاً ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ق:١٨.

إنّ المجتمع الذي يشعر أفراده بالرقابة الذاتية، تسيطر عليهم، وتوجه أعمالهم، ويستسلمون لها بحب وانقياد، هي التي تمنعهم من الخيانة، وتعينهم على الأمانة، وتدفعهم إلى العفة، عفة اليد، وعفة الفرج، وعفة اللسان، وتجعلهم يؤدون واجباتهم على أكمل وجه، وبإتقان وإخلاص، فيغدو المجتمع نظيفاً سليماً متماسكاً.

إنّه لا أحد يستطيع أن يفرض على الناس التزام مبدأ من المبادئ أو خلقاً من الأخلاق بقوةٍ خارجية أو سلطة قانون، فنحن نرى الدول اليوم على الرغم من وجود القوانين والأنظمة، إلاّ أنّها لم تستطع أبداً أن تحقق أي التزامٍ حقيقي بالأخلاق — إن صح أن يسمى ما عندهم أخلاقاً — ولهذا كان لا بد من حل هذا الإشكال في منظومة الأخلاق الإسلامية، وليس أقدر على ذلك من تعميق معنى الرقابة الذاتية، أو ما يعبر عنه بالمصطلح الحديث بالضمير أو الوازع الداخلي، وقد تكفلت سورة الحجرات بترسيخ هذا المبدأ في القلوب، وتقويته في النفوس، حتى غدا وكأنّه يسري في كل كلمة، بل في كل حرف من السورة، ويمكن أن

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية(١:٢٢٩-٢٣٠)

نتبين ذلك من خلال الأمور التالية:

١-النداءات الإيمانية المتكررة في السورة، وربط التوجيهات الربانية والتكاليف الشرعية بها، والإيمان إذا استقر في النفوس، وأشربت به القلوب، فإنّه من أعظم الأسباب التي تدفع إلى العمل، وتقوي الرقابة الذاتية ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

٢-ربط المؤمنين بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، والتي تكرر مجيئها في ختام بعض آيات السورة، فحينما نهى الله المؤمنين عن التقدم بين يدي الله ورسوله ختم ذلك بذكر صفتين عظيمتين من صفات الله، وهما السمع والعلم، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ولما ذكر الله ميزان التفاضل بين الناس، ختم الآية باسمين جليلين من أسماء الله، وهما العليم والخبير، فقال تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ واختتمت السورة أيضا بذكر إحاطة علم الله بما غاب في السموات والأرض، وأنّه سبحانه يرى ويبصر كلّ ما يعمله الناس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ولا شك أنّ المؤمنين إذا تيقنوا أنّ الله يسمع أقوالهم، ويعلم نياتهم، وهو سبحانه الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قويت عندهم مراقبة الله في السر والعلن.

يقول ابن القيم: وعلمه-أي العبد- بسمعه-تعالى-وبصره، وعلمه أنّه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنّه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كلّ ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه

الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياة باطناً، ويثمر له الحياة اجتناب المحرمات والقبائح[1].

٣-الأمر بالتقوى[2]، وجعلها صفة من صفات المؤمنين الذين يستجيبون لأمر الله، والتقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل المأمور وترك المحظور، وهذه هي حقيقة الرقابة الذاتية، قال تعالى﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾أي: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً[3].

٤-الترغيب بالمغفرة والرحمة والأجر العظيم إذا استجاب المؤمنون لأمر الله ورسوله، والتحذير من حبوط الأعمال، ونفي العقل عن أكثرهم، ووصفهم بالظلم، إذا خالفوا أمر الله ورسوله، كل ذلك يقوي من دوافع الطاعة عندهم، ويزيد حذرهم من المعصية، فيتولد عندهم شعور قوي، وإحساس يقظ، وضمير حيّ، ورقابة على الحركات والسكنات.

وقد عمل هذا التحذير المرهوب عمله العميق في نفوس الصحابة، وأثر فيهم تأثيراً عظيماً، ووعوا هذه الآداب الرفيعة وتربوا عليها، فقد روى البخاري في نزول قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ عن ابن الزبير، قال: فما كان عمر يسمع رسول الله

(١) انظر: مفتاح دار السعادة(ص٤٢٥)

(٢) جاء الأمر بالتقوى ثلاث مرات في السورة، الأولى عقب النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والثانية بعد الأمر بالإصلاح بين المؤمنين، والثالثة عقب النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن، وأيضا جاء الحديث عن القلب في مواضع كثيرة من السورة، والتقوى محلها القلب.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير(٣٤٨:٧)

صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه[١].

وروى البزار عن أبي بكر الصديق، قال: لما نزلت هذه الآية﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلاّ كأخي السرار[٢].

وروى البخاري أنّ النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌ ،كان يرفع صوته فوق صوت النبي، فقد حبط عمله وهو من أهل النار.....الحديث[٣].

ويحكى عن أبي عبيد أنّه قال: ما دققت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه[٤].

وأتي ابن مسعود رضي الله عنه برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله: إنّا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به[٥].

وهكذا يتبين لنا أنّ الرقابة الذاتية أساس متين لبناء المجتمع، وذلك بإحساس الفرد بأنّ الله مطلع عليه في السر والعلن، وبهذا يستقيم المجتمع، ويأمن الأفراد على أرواحهم ودمائهم وأعراضهم.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾، ح٤٨٤٥

(٢) انظر: البحر الزخار المعروف بمسند البزار(١٢٧:١)

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾، ح٤٨٤٦

(٤) انظر: البحر المحيط(٥١٢:٩)

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في النهي عن التجسس، ح٤٨٩٠

ثامناً: التوبة:

إنّ من أهم العوامل التي تؤثر على شخصية الفرد، وبالتالي على بناء المجتمع، هي التوبة إلى الله والإنابة إليه، والفرار من الذنوب والمعاصي، فالذنوب من أهم الأسباب في تمرد الإنسان وشقائه، وتضر صحته وعقله وعمله، وهي أيضاً تؤثر في المجتمع، فتجعله يعيش في أزمات نفسية تعرضه للاضطرابات والمحن، قال تعالى﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾الأنعام: ٦٥

فالتوبة عودة إلى الاستقامة والنزاهة وحسن السيرة، وهي باب من أبواب الإصلاح، بها يرجع الإنسان سوياً يستشعر الرحمة والطمأنينة، وبدونها يبقى المذنب يعيش القلق والاضطراب، وقد يتمادى في ذنوبه إلى أن يصل إلى اليأس والقنوط، ولهذا اعتنى القرآن بشأن التوبة كأساس من أسس بناء المجتمع، حتى سميت سورة من السور الطوال باسمها.

وقد تكرر ورود هذا الأساس في سورة الحجرات في أكثر من موضع، من خلال مجموعة من إشارات الترغيب والترهيب الذي ذيلت بها بعض الآيات، وهي كالتالي:

أولاً: قوله تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أنّه لما نزل قوله تعالى﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ آلى على نفسه إلاّ يكلّم رسول الله صلى الله عليه، إلاّ كأخي السرار[1]، وهذا الموقف من أبي بكر يمثل الاستجابة السريعة والتأثر الشديد، والإحساس العميق بالتقصير في الأدب

---

(١) انظر: زاد المسير(٧:٤٥٧)

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، برفع الصوت في حضرته، فعزم على نفسه، وحلف عليها ألاّ يعود إلى ذلك الفعل، وهكذا يربي الله قلوب عباده المؤمنين، ويجعلها خالصة لأجل التقوى، فلم يبق لغير التقوى فيها حق، كأنّ القلوب خلصت ملكاً للتقوى[1]، وقد كتب الله لهم معها المغفرة والأجر العظيم.

وهكذا نرى أنّ أمر التوبة وإن كان في الظاهر بين العبد وربه، إلاّ أنّه ذو تأثير عميق على الأفراد، ومن ثمّ على المجتمع، فالإنسان لا ينفك من الوقوع في بعض الذنوب، وقد يسرف في الخوف، أو يتمادى في الرجاء، فيعيش حالة من القلق النفسي التي تستولي على الأفراد، فيصاب كيان المجتمع بالخلل والاضطراب.

ثانياً: قوله تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

هذه الآية نزلت في الأقرع بن حابس حين قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد بني تميم، وكانوا أعراباً جفاة، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بصوت مرتفع: يا محمد اخرج لنا، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فنزلت الآية[2].

ومع أنّ الله وصفهم بأنّ أكثرهم لا يعقلون، وكره منهم هذا التصرف المنافي للأدب اللائق بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيّن لهم أنّ الأولى والأفضل الصبر حتى يخرج إليهم، إلاّ أنّه سبحانه وتعالى دعاهم إلى التوبة، وحبب إليهم الإنابة، ورغبهم في المغفرة والرحمة، فقال

(١) انظر: روح المعاني(٢٦:١٣٨)

(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول(ص٣٨٧) مطولاً

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فمن رحمته فتح لهم باب التوبة.

وأي مجتمع لا يخلو من هذا الصنف من الناس، ممن يتصف بقلة الوعي والفقه، و لم يتأدب بآداب الإسلام، ويتخلق بأخلاق القرآن، فهؤلاء ينبغي على المصلحين والدعاة أن يحسنوا التعامل معهم، ويصبروا على تربيتهم وتهذيبهم، وأن يدعوهم إلى التوبة الصادقة، ويفتحوا لهم باب الأمل؛ لكي يكونوا لبنات صالحة في بناء المجتمع.

ثالثاً: قوله تعالى ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

هذا التهديد جاء عقب النهي عن جملة من الأخلاق الرديئة التي تفتك بالمجتمع وتقوض بناءه، فإذا كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصي، فقد وجبت التوبة منها، فمن لم يتب فهو ظالم؛ لأنّه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك، فكان ظلمه شديداً جداً[1].

وهي دعوة للتوبة وتطهير النفوس من الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين أفراد المجتمع؛ لأنّ هذه الآفات تنبت الضغائن في القلوب، وتزرع الأحقاد في النفوس، وتولد العداوة والبغضاء بين الناس، وتؤدي إلى التفرق والشقاق، وخطرها أشد على المجتمع من شرر الحرب.

رابعاً: قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

هذا التعقيب يأتي بعد نهي المؤمنين عن أخلاق مذمومة ابتلي بها كثير من الناس، فظنوا بالآخرين سوءاً، فوقعوا في الآثام، وتتبعوا العورات، وتجسسوا عما ستر عن الأعين، وهي دعوة مؤكدة من رب رحيم، لكل

(١) انظر: التحرير والتنوير(٢٦: ٢٥٠).

من اقترف شيئاً من هذه الذنوب أن يبادر بالتوبة والرجوع إلى الله، وهي دعوة لكل من شذ عن الصف أن يرجع إلى جـادة الصـواب، ويضـم جهوده إلى جهود إخوانه المسلمين لبناء المجتمع على أساس من التقـوى والتوبة الصادقة.

وقد بيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم أهمية التوبة وأثرهـا في تطهـير المجتمع، والارتفاع به إلى أفق سام، ففي قصة ماعز لما اعتـرف بالزنـا، ورجمه النبي صلى اله عليه وسلم، بعد إقراره طائعاً وإلحاحـه في تطهـير نفسه، سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم كالكلب، ثم سـار الـنبي صلى الله عليه وسلم حتى مر بجيفة حمار، فقال: أين فلان وفلان؟ انـزلا، فكلا من جيفة هذا الحمار، قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال: فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيـده إنّه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها[1].

فانظر كيف رفع النبي صلى الله عليه وسلم من شأن التوبة، وبـين أثرها في تطهير النفوس من أعظم الآثام وهو الزنا، وكيف غضب صـلى الله عليه وسلم من التعدي على حرمة المسلم وكرامته، حتى ولـو أتـى كبيرة من كبائر الذنوب.

خامساً: قوله تعالى﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

هذا الخطاب موجه للأعراب الذين ادعوا منزلة أعلى من منزلتـهم، وذلك أنّهم قالوا آمنا، ولّما يتمكن الإيمان في قلوبهم، ومع هذا فإن كـرم

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، ح٤٤٢٨

الله اقتضى أن يجزيهم على كلّ عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئاً، فهذا الإسلام الظاهر يكفي لتحسب لهم أعمالهم الصالحة، فلا تضيع ولا ينقص من أجرها شيء عند الله ما بقوا على الطاعة والاستسلام[1].

وفي هذا بيان كرم الله عز وجل، وأنّ الإنسان إذا حقق ما يجب عليه من طاعة الله ورسوله، غفر الله ذنوبه، ومنحه الجزاء الأوفى، فلا بد من مد الأيدي للعصاة والمذنبين، وبث الأمل في نفوسهم، وإشاعة ثقافة التوبة بين أفراد المجتمع، فرحمة الله واسعة، وفي الحديث: لله أشد فرحاً بتوبة أحدكم، من أحدكم بضالته إذا وجدها[2].

وبعد فهذه ثمانية من المبادئ والقواعد والأصول العظيمة التي تضمنتها سورة الحجرات، وهي كما ترى ليست أقوالاً تردد، ولا شعارات ترفع مجردة من مضمونها تتشدق بها بعض المجتمعات التي تدعي الحضارة، بل إنّها تحققت واقعاً حياً وسلوكاً عملياً، تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقيمه في المدينة، وهذه الأسس كفيلة بإذن الله ببناء مجتمع رفيع كريم نظيف سليم، روحه الإيمان، وشعاره الطاعة، ورباطه الأخوة، وقانونه العدل، ودستوره الأخلاق، ومعيار التفاضل بين أفراده هو التقوى، وحارسه مراقبة الله في السر والعلن، وأمله التوبة والإنابة إلى الله.

(١) انظر: في ظلال القرآن(٦:٣٣٤٩) بتصرف

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٢٦٧٥

الخاتمة

الحمد لله الذي لا تعدّ نعمه ولا تحصى، والصلاة والسلام على خير الورى، محمد وعلى آله وصحبه أولي النهى، وبعد:

فإنّي في ختام هذه الجولة في رياض سورة الحجرات، ومع أسس البناء الحضاري للمجتمع في ضوء هذه السورة الجليلة، وقبل أن أضع قلمي وأتوقف عن الكتابة أحب أن أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها في نهاية هذا البحث المتواضع، وهي:

أولاً: مفهوم الحضارة في القرآن الكريم يختلف عن غيره من المفاهيم المادية للحضارة، وهذا الاختلاف يرجع إلى المبادئ والأسس التي تبنى عليها هذه الحضارة.

ثانياً: إذا أردنا معرفة هذه الأسس فلا بد لنا من الرجوع إلى القرآن الكريم، ودراسته بتدبر وتأمل، واستقرائه من أجل التعرف على المبادئ والقواعد والأصول التي عدّها القرآن أسساً لبناء الفرد والمجتمع.

ثالثاً: هذا البناء الحضاري للإنسان وللمجتمع يمكن أن نهتدي إلى أسسه من خلال دراسة وتدبر سورة جليلة من سور القرآن الكريم، ألا وهي سورة الحجرات، والتي يدور محورها حول بناء المجتمع.

رابعاً: من خلال دراسة سورة الحجرات نستطيع أن نستنبط ثمانية أسس رئيسة لبناء المجتمع وهي:

الإيمان، والطاعة، والأخوة، والعدل، والأخلاق، والمساواة، والرقابة الذاتية، والتوبة.

خامساً: بيّنت عناية السورة بكل أساس من هذه الأسس، وأهميته وأثره في بناء المجتمع.

التوصيات:

أولاً: الاهتمام بموضوع الأسس الحضارية لبناء المجتمع في ضوء القرآن؛ لإبراز أحد الجوانب المهمة من وجوه الإعجاز القرآني، وهو جانب ريادة القرآن في المجال الحضاري.

ثانياً: عمل دراسات مستقلة لكل أساس من هذه الأسس، من أجل إبراز جوانبه المشرقة، ويستحق كل أساس أن يفرد ببحث مستقل.

ثالثاً: إقامة مراكز أبحاث تعنى بدراسة الأسباب التي أدت إلى تخلف المجتمعات الاسلامية حضارياً، ووضع الحلول المناسبة لها من خلال دراسة القرآن دراسة متأنية لاستخراج ما فيه من الكنوز والدرر.

وأخيراً أرجو أنّي قد وفقت لعرض هذا الموضوع، وأعلم أنّه يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة، وأنّه لا تكفيه هذه الوريقات، ولكن حسبي من القلادة ما أحاط بالعنق، ولعلي فتحت الباب لمن يأتي بعد، ويتوسع في هذا الموضوع، وأسأل الله أن يغفر لي ما زل به قلمي، وما قصر عنه علمي، وأن يكتب لي الأجر والمثوبة، وأدعو كلّ من قرأ هذا البحث أو سمعه أن لا يبخل عليّ بالنصح والتوجيه، فله منّي جزيل الشكر والامتنان، وله من الله بإذنه الأجر والثواب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١-الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٣٩٨هـ.

٢-الأدب المفرد، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٣-أسباب النزول، للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: الدكتور عصام الحميدان، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٤-الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، طبع على نفقة صاحب السمو الملكي أحمد بن عبد العزيز، ١٤٠٣هـ.

٦-البحر الزخار المعروف بمسند البزار، للحافظ أبي بكر أحمد بن عمر البزار، تحقيق: د.محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٧-البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٨- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، جمع وتخريج: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤١٤هـ.

٩-التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١٠- تفسير القاسمي المسمّى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت،ط٢، ١٣٩٨هـ.
١١- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير، تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنا، مكتبة دار السلام.
١٢- تفسير القرآن الكريم(مجموعة من السور)، للشيخ محمد صالح العثيمين، دار الثريا، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.
١٣- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
١٤- التفسير المنير، للأستاذ وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١١هـ.
١٥- تفسير النسائي، للإمام أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: سيد الجليمي، وصبري الشافعي، مكتبة السنّة، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ.
١٦- تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.
١٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: محمد زهري النجار، الرئاسة العامة للإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤١٠هـ.
١٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ.
١٩- الجامع الصحيح، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر بيروت، ط١، ١٤١١هـ

٢٠- الجامع الصحيح، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق كمال الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ.
٢١- الجامع لأحكام القرآن، للإمام محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
٢٢- الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، د: أحمد عبد الرازق أحمد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ.
٢٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
٢٤- دلائل النبوة، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
٢٥- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، للعلامة شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٦- زاد المسير في علم التفسير، للإمام عبدالرحمن ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط١، ١٣٨٤هـ.
٢٧- سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث، دار الجنان، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.
٢٨- شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، ط٢، ١٤١٥هـ.
٢٩- صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.
٣٠- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد

فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.
٣١- الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل الوادعي، دار الأرقم، الكويت، ط٤، ١٤٠٥هـ.
٣٢- الصحيح من أسباب النزول، عصام بن عبدالمحسن الحميدان، دار الذخائر، الدمام، ط١، ١٤٢٠هـ.
٣٣- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ.
٣٤- فتح القدير، للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.
٣٥- فقه السيرة، للأستاذ محمد الغزالي، مؤسسة عالم المعرفة، بيروت، ط٧، ١٩٧٦م.
٣٦- فيض القدير شرح أحاديث الجامع الصغير، للإمام عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ.
٣٧- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٨ ، ١٣٩٩هـ.
٣٨- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الرائد العربي، بيروت، ط٥، ١٤٠٢هـ.
٣٩- الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة، لأبي البركات محمد بن أحمد المعروف بابن الكيال، تحقيق: عبد القيوم عبد رب النبيّ، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠١هـ.
٤٠- لباب النقول في أسباب النزول، للإمام جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.
٤١- لسان العرب، لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، دار

الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.
٤٢- المجتمع والأسرة في الإسلام، د. محمد الطاهر الجوابي، الرياض، دار عالم الكتب، ط٣،١٤٢١ هـ .
٤٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٤٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ط١، ١٤١٣هـ.
٤٥- مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت،ط٧، ١٤٠٢هـ.
٤٦- المدخل إلى السنن الكبرى، للحافظ البيهقي، تحقيق: الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء، الكويت، ط١، ١٤٠٤هـ.
٤٧- المستدرك على الصحيحين، للإمام أبي عبدالله الحاكم، مع تضمينات الإمام الذهبي، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
٤٨- المسند، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ ،١٤١٢ هـ.
٤٩- المعجم الكبير، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.
٥٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، القاهرة، الكريم، ١٣٦٤هـ.
٥١- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس أحمد بن زكريا ، تحقيق عبد

السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
٥٢- مفتاح دار السعادة، للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمود حسن ربيع، مكتبة حميدو، الإسكندرية، ط٣، ١٣٩٩هـ.
٥٣- مقدّمة في أصول التفسير، للإمام ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، تحقيق عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٣٩٢ه.
٥٤- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام ابن الأثير الجزري، تحقيق: محمود الطناحي، وطاهر الزاوي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ.